



بسم الله، الحمد لله، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إن المؤسسات الثلاثة: الطلائع _ الشبيبة _ الاتحاد الوطني لطلبة سوريا، إنما كانت وظيفتها الأولى و الأخيرة غسل دماغ شعبنا بصديد الإلحاد والتطرف والتشويه والتزوير والافتراء على ديننا و نبينا وكتاب ربنا وتاريخنا، وتاريخنا ورموزنا في شتى المراحل والمستويات.

وما يواكب ذلك من اختلاط ماجن، وتشجيع على التحرش الجنسي، ودعوة للتبرج، وتبرم من الحجاب، وتسفيهه لصلاحية الإسلام لكل زمان و مكان، وتشكيك في الثوابت، ومحاولة عنيدة في سبيل تحطيم المقدس عند كافة شرائح جماهيرنا، كل ذلك في مقابل تقديم الثقافة الغربية التي زحفت على مجتمعات المسلمين وإسلامهم مع حقبة الاستعمار البغيض على أنها بديل الخلاص لأمتنا! وتسريع ذلك الزحف، إلى غير ما ذكرنا من مفاصد واعتداءات لا تخفى على ذي لب، ولا يغمض العين عنها إلا من طمس الله نور بصره وبصيرته معا!

هذه الحقيقة عشناها لحظة بلحظة وسأتي بعونه تعالى بشهادتي الشخصية عليها في سطور هذا المقال القادمة. كما أن وجود علماء سوء تتقرب من سلاطين الجور زلفي، ليست بدعا من تاريخ أمتنا المجيد، لكنها جزء من كل نقطة سوداء في ذاك التاريخ المضيء، كما أنني لست أول من أعلن عنها وإنما القرآن الكريم والسنة المشرفة والتاريخ كل ذلك تكفل بإبرازها والتحذير من مخاطرها، فهي مرض لم يخل منه عصر إلا أن خطره استشرى بقوة في هذا المنعطف القاسي من تاريخ أمتنا، لهذا وجدنا العلماء العاملين، والفقهاء المخلصين، والدعاة الغيورين يقتدون بمنهج الكتاب والسنة و في

مقدمة من أجاد التوصيف، ووفق في التحذير الإمام الجرجاني من علماء القرن الرابع الهجري (325_392) حيث وصف حال الفريقين وصفا دقيقا لم أجده بمثله لغيره. يقول الإمام الجرجاني أبو الحسن رحمه الله تعالى:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذِّلِّ أَحْجَمًا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ
وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَكْرَمًا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كُنْتَ كُلَّمَا
بَدَأَ طَمَعُ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَمًا
وما زلتُ مُنْحَازًا بعرضي جانبًا
عن الذلِّ أعتدُّ الصيانةَ مَغْنَمًا
إِذَا قِيلَ: هَذَا مِنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى
وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
أنزهها عن بعض ما لا يشينها
مخافةَ أقوالِ العدا فيمَ أو لما؟
فأصبحُ عن عيبِ اللئيمِ مُسَلِّمًا
وقد رحتُ في نفسِ الكريمِ معظِّمًا
وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الْأَمْرُ لَمْ أَبْتَ
أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مَتْنَدِمًا
ولكنه إِنْ جَاءَ عَفَّوْا قَبْلَتَهُ
وَإِنْ مَالٌ لَمْ أَتْبِعْهُ هَلًا وَلَيْتَمَا
وَأَقْبِضْ خَطُوبِي عَنْ حَظُوظٍ كَثِيرَةٍ
إِذَا لَمْ أَنْلِهَا وَافَرَ الْعَرِضَ مُكْرَمًا
وَأَكْرِمِ نَفْسِي أَنْ أَضَاجِكَ عَابِسًا
وَأَنْ أَتَلَقَّى بِالْمَدِيحِ مُدَمِّمًا
وَكَمْ طَالِبٍ رَقِيَ بِنُعْمَاهُ لَمْ يَصِلْ
إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الرَّئِيسَ الْمَعْظِمًا
وَكَمْ نَعْمَةٍ كَانَتْ عَلَى الْحُرِّ نَقْمَةً
وَكَمْ مَغْنَمٍ يَعْتَدُّهُ الْحُرُّ مَغْرَمًا
ولم أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مَهْجَتِي
لَأُخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتَ لَكِنْ لَأُخْدِمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرَسًا وَأُجْنِيهِ زِلَّةً
إِذَا فَاتَبَاغُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا

وإني لراضٍ عن فتًى متعففٍ
يروح ويغدو ليس يملك درهماً
يببئ يراعي النجمَ من سوء حاله
ويصبح طَلْقاً ضاحكا متبسما
ولا يسأل المثرين ما بأكفهم
ولو مات جوعاً عِفَّةً وتكرماً
فإن قلت: "زَندُ العِلْمِ كابٍ"، فإنما
كبا حين لم نحرسُ جمَاهُ وأظَلْمَا
ولو أن أهلَ العِلْمِ صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوسِ لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنَّسوا
مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حتى تجَهَّما
وما كل برقٍ لاحَ لي يستفزني
ولا كل من لاقيتُ أرضاه مُنعِما
ولكن إذا ما اضطرني الضُر لم أبت
أقلبُ فكري مُنجِداً ثم مُتْهما
إلى أن أرى ما لا أغصُّ بذِكره
إذا قلتُ قد أسدى إليَّ وأنعمَا

قال التاج السبكي رحمه الله تعالى، بعد أن أورد هذه القصيدة الفائقة العصماء في ترجمة الجرجاني: "لله هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه! وما أعلى على هام الجوزاء موضعه! وما أنفعه لو سمعه من سمعه!..."
هذه الأبيات الرائعة تختصر لنا صنفي علماء الإسلام وعلماء السلطان، وأننا لسنا من صنفناهم على خلفية تصفية حسابات سياسية، لكنهما وجهان مختلفان: أحدهما أخلص العمل لوجه ربه الأعلى، و أحسن الظن بوعده، و ارتعد قلبه من وعيده، يرجو رحمته ويخشى عذابه، يدعوه رغبا ورهبا، ولا تأخذه في جلال رب العزة لوم أو عتاب، ولا ترهبه الدنيا لو أطبقت عليه، كما لا يسيل لعابه لما يقدمه له الأعداء من شهوة محرمة أو إغراء.
والآخر طامع في الحياة، باحث عن فرصة دنيا أو ظهور، غافل عن وعد الله معرض عن وعيده، ذليل هان عليه أمر دينه، بعد أن صارت الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، وبعد أن صار الدين وسيلته التي ضرب منها جسرا لبلوغ زخارف فانية من حطامها!

فهذان الوجهان يحكيان لنا فريقين متناقضين في كل شيء ولو كانا يحملان العنوان الإسلامي ذاته!
ركز معي في كلام الجرجاني و هو يقول:

أرى الناس من داناهم هان عندهم
ومن أكرمته عزة النفس أكرما

تجد قولاً فصلاً في الطائفتين. وفي قوله:

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما

بدا طمع صيرته لي سلما

وقوله: وكم نعمة كانت على الحر نقمة

وقوله: أشقى به غرسا و أجنیه ذلة؟! _ يشير إلى العلم _ إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما

وقوله: ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... وقوله: ولكن أهانوه فهانوا

وقوله: وما كل برق لاح يستفزني ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما

عند هذه النقطة تنتهي من الجزء الأول من هذا المبحث على أمل اللقاء بكم في الأجزاء الأخرى منه

راجيا من المولى عز و جل أن لا تحرموني من دعوة صالحة في ظهر الغيب, ومن ملحوظة بناءة, وآخر دعوانا أن الحمد لله

رب العالمين في انتظار الجزء الثالث بإذنه تعالى.

المصادر: